

## الدرس السابع

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ ۖ  
فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا  
مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ  
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَآخُفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ  
﴿٨٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ  
لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ  
الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ  
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَجِّحْ  
بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

(الحجر: ٨٥-٩٩)

التسرية عن رسول الله ﷺ وإيناسه وشدُّ أزره :

في هذه الآيات الخمس عشرة الأخيرة من السورة تخاطبُ رسول الله ﷺ إيناساً  
له ، وشدّاً لأزره ، وتقويةً لعضده ، في مواجهة أهل الشرك ، وأهل الباطل ، الذين  
سَخِرُوا من دعوته ، واستهزؤوا بها ، وكادوا لها كيداً .

مخاطبة الله سبحانه رسوله بكاف الخطاب عشر مرات :

حين يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ ، نجدُ كافَ الخطاب : ﴿ إِنَّ  
رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ ،  
﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ ، ﴿ وَآخُفِضْ  
جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ

الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أُنُوكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ ﴿﴾ ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ﴿﴾ ، ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ ﴿﴾ ،  
وهكذا ، عشر مرات فيها خطاب للنبي ﷺ .

أوامر ونواهٍ في عشر آيات :

وكذلك أمرٌ ونهيٌ حوالي عشر مرات: ﴿ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ ﴿﴾ ، ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِمْ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ ﴿﴾ ، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ ﴿﴾ ، ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿﴾ ، ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿﴾ ، ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ﴿﴾ ، ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿﴾ ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ﴿﴾ ، ﴿ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ﴿﴾ ، ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ ﴿﴾ .

أوامر ونواهٍ : كلها خطابٌ للنبي ﷺ ، وكلها وصايا وتوجيهات ربانية للرسول ، ولمن بعده من الدعاة ، بعد أن قصَّ عليه قصصَ السابقين من الأمم السَّابِقة .

والأمم حين يقصُّ القرآن قصصَهَا ، لا يقصدُ بها التسلية ، ولا يقصدُ بها مجردَ إزْجَاءِ الوقت ، ولكن للعبرة بها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف: ١١١) ، ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (هود: ١٢٠) ، ومن هنا جاء الخطاب للنبي ﷺ .

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ لَا بِالْبَاطِلِ وَمَوْقِفِ أُولِي الْأَلْبَابِ :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

بدأ هذا الخطاب بقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ، ما خلق الله هذا الكون علويَّه وسفليَّه ، السماوات العلى ، والأرض التي جعلها الله للنَّاسِ بساطًا وفراشًا ومهادًا ، وما بين السماوات والأرض من مخلوقات ، لم يَخْلُقِ الله هذا العالم ، هذا الكون كلَّه باطلاً ، ما خلقه إلا بالحق والحكمة

والمصلحة ، فالله من أسمائه : الحكيم ، فلا يخلق شيئاً عبثاً ولا اعتباطاً ، لا يخلق شيئاً باطلاً ، ولا يشرع شيئاً عبثاً ولا اعتباطاً أيضاً .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿ (آل عمران: ١٩٠، ١٩١) ، يقول هؤلاء أولوا الألباب ، أهل الذكر والفكر ، الذين يذكرون الله تعالى ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ ﴾ ، يستحيل أن تخلق هذا الكون باطلاً ، لا بد أنك خلقته لحكمة ، عِلْمَهَا مَنْ عِلْمَهَا ، وَجَهْلَهَا مَنْ جَهْلَهَا . وهذا الذي نفاه أولوا الألباب ، ذكره القرآن حينما قال تعالى في سورة ص : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ أَمْ يُجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿ (ص: ٢٧، ٢٨).

العدل الإلهي في مجازاة المحسن بإحسانه ومعاقبة المسيء بإساءته :

هذا هو الباطل أن يُسوَّى الله بين المُحسن والمُسيء ، بين المؤمن والكافر ، بين المُتَّقِي والفاجر ، هذا يتنافى مع العدل ، ويتنافى مع الحكمة ، هذا هو الباطل : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، الذين كفروا ظنوا أن سوق هذه الحياة ستُنْفَضُ ، وقد ظلمَ فيها الظالم ، وَقَتَلَ فيها القاتل ، وَسَرَقَ فيها السَّارِق ، وطغى فيها الطَّاغية ، وارتكبت فيها القبائح ، فلم تَطُلْ هؤلاء يدُ القانون ، فهم حُرَّاس القانون ، (حاميا حرامها) ، هم الذين كانوا من المفترض أن يُعَاقَبوا المجرمين ، فما بالنا إذا كانوا هم أعتى المجرمين ، فَمَنْ يعاقبهم ؟

مَنْ يعاقب فرعون وهامان وقارون؟ من يعاقب نمرود وأباجهل والمتمردين في الأرض؟ مَنْ يعاقب الأشرار والفجار الذين يملكون القوة ، ويمكرون الثروة ،

ويملكون السلطة؟ هذا هو الباطل، إذا كانت الحياة ستنفض، وقد عاش هؤلاء مُتَمَتِّعِينَ بِالْأَمْوَالِ، مُتَمَتِّعِينَ بِالسُّلْطَانِ، آكِلِينَ لِحَقُوقِ غَيْرِهِمْ، دَائِسِينَ عَلَى الضَّعْفَاءِ بِأَقْدَامِهِمْ، وَلَمْ يَأْخُذُوا عُقُوبَتَهُمْ، تكون هذه الحياة باطلة، إذا خرج الظالم والطاغية من هذه الحياة ولم ينل عقوبته اللائقة بمثله فأين العدل؟

هناك أناسٌ لم تنلهم يدُ القانون في الدنيا . يقول بعض رجال القانون : القانون حمارٌ ؛ لأنَّ كثيراً من الناس يمكرون على القانون ويغلبونه ، عنده حيلٌ للخروج من القانون ، في أمريكا يوجد من يؤلّف كتباً للتحايل على القانون ، فماذا يفعل القانون مع هؤلاء؟ فكما قلنا : الذين في أيديهم تطبيق القانون يخونون القانون ، إذا كان الظالم سيخرج من الحياة دون أن ينال عقوبة ظلمه ، والأخيار الذين عاشوا طوال حياتهم لحراسة الحقّ ، وخدمة الخير ، ومنفعة الغير ، وعمل الصّالحات ، واستباق الخيرات ، ثمّ لم ينالوا جزاءهم ، بعضهم قُتل ، ربما يقول بعض الناس : نالوا جزاءهم براحة ضمير وهدوء نفس وطيب حياة ، لا ، بل قتلوهم في شبابهم ، لم ينل المقتول المظلوم جزاء ما عمل من صالحات ، وما قدّم من خيرات .

إذا انتهت الحياة على ذلك فهي باطلة ؛ لأن الإنسان لم ينل جزاءه ثواباً أو عقاباً ، لهذا أكّد القرآن على أن الله يبعث من في القبور ، ويقيم لهم محاكمة ظاهرة عادلة ، ويُجازي المحسن على إحسانه ، والمسيئ على إساءته ، فلا يقبل أن تنتهي هذه الحياة ولا تكون هناك حياة أخرى ، هذا باطل ، الحقُّ أن الله خلق هذه الحياة لتكون مزرعةً لحياة أخرى ، نحن نزرع هنا لنحصد هناك ، اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حسابٌ ولا عمل ، فلا بدّ أن تكون هناك حياة أخرى تُوفى فيها كلُّ نفس ما كسبت ، وتُخلد فيما عملت ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨) ، كلُّ إنسان سيري جزاءه : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلُهُمْ ﴾ (الزلزلة: ٦) ، يرى عمله بعينه : ﴿ أَقْرَأْ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (الإسراء: ١٤).

لهذا قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ،  
وكما قال تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا  
بِالْحُسْنَى ﴾ (النجم: ٣١) ، ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ  
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ  
اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾  
(الجنات: ٢١، ٢٢).

هذا هو الحق أن تجزى كل نفس بما كسبت ، لا يضيع عمل عامل من ذكر  
أو أنثى ، لا العمل الصالح يضيع ، ولا العمل السيئ يضيع ، هذا يجزى حسنات  
ومثوبة ، وهذا يجزى على السيئات سيئات وعقوبة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَنُعِيبَنَّ ﴿٢١﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ  
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الدخان: ٣٨-٤٠) ،  
هذا هو الحق ، الحق الذي قامت به السماوات والأرض .

تأكيد قرب الساعة :

### ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ ﴾

الساعة التي تجزى فيها المسيئ بإساءته ، والمُحسن بإحسانه ، وتوفى كل نفس  
فيها ما كسبت ، الساعة آتية ، بهذا التأكيد : ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ ﴾ ، إن هذه  
حرف توكيد للجملة الإسمية ، واللام في الخبر تأكيد على تأكيد ، يؤكد أن الساعة  
آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور .

﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ ﴾ ، يوم القيامة بالبعث والحساب والجزاء ﴿ لَأْتِيَةٌ ﴾ ، واقعة  
وحاصلة<sup>(١)</sup> . وفيها يكون الحساب وفصل القضاء ، وكل آت قريب .

(١) وفيها يكون الحساب وفصل القضاء ، ومدّة الحياة الدنيا قصيرة جداً بالنسبة إلى الآخرة ،  
فإذا أوديت في الله وأنت تؤدي رسالة ربك ، فلا تحزن ولا تقابل الأذية بمثلها .

## الصفح الجميل :

### ﴿ فَأَصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾

الصفح الجميل هو : الحَسَن اللطيف بدون عتاب أو انتقام ، أي : تعامل مع الناس بالخلق الحَسَن ، ﴿ فَأَصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ ، هكذا أمره الله سبحانه وتعالى أن يصفح عمن آذاه وظلمه ، ويترك عقابه ولومه ، وهو أبلغ من مجرد العفو ، ويؤكد قوله تعالى : ﴿ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ ﴾ (الزخرف: ٨٩).

القرآن أمر بالصفح الجميل ، والصبر الجميل : ﴿ فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ (المعارج: ٥) ، والهجر الجميل : ﴿ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (الزمل: ١٠) .

والصفح الجميل : الذي لا تشديد في العتاب معه . والصبر الجميل : الذي لا شكوى معه . والهجر الجميل : الذي لا إيذاء معه . هكذا أمر الله سبحانه وتعالى رسوله : ﴿ فَأَصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ فهو تعالى يأمر رسوله بكل معنى جميل .

### القرآن يحثُ على تذوق الجمال الحسِّي والمعنوي :

القرآن يحثنا على تذوق الجمال في كلِّ شيءٍ ، الجمال الحسِّي كما ذكر سبحانه في معرض امتنانه بالأنعام في سورة النحل : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تَرْتَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ ، حينما ترجعون بالأنعام بالإبل والبقر والغنم وهي ممتلئة البطون عند الرِّواح ، وحين تَسْرَحُونَ بها ، منظرٌ جميلٌ ، لوحة فنيَّة رائعة ، لو رَسَمَهَا فَنَانٌ لَقَلْنَا : ما أجملها! كيف وأنت تراها في الطبيعة ، خَلَقَهَا يدُ الله ، التي أحسنت كلَّ شيء خلقه ، وأبدعت كلَّ شيء صنعه ، الجمال الحسِّي ، والجمال المعنويُّ في الأخلاق<sup>(١)</sup> .

(١) والجمال في الصَّفْح يكون بإبقاء الوجه طلقاً سمحاً لا تظهر عليه علامات الغضب أو الغيظ والكراهية ، وإبقاء الكلام عادياً لا تظهر فيه أمارات الاضطراب ، ويكون أيضاً بعدم شغل القلب برغبات الانتقام .

## دعوى نَسَخ آية الصَّفْح الجميل بآية السَّيْف :

بعض المفسرين قالوا : هذه الآية كانت قبل آية السيف . آية السيف جاءت فقطعت رقاب مئة وأربعين آية أو مئتي آية من القرآن الكريم ، ولكن المفسرين المحققين قالوا : هذا لا يُنسخ ، هذا أمرٌ بحُسن الخُلُق ، وحُسن الخُلُق هذا لا يمكن أن يُنسخ ، إنما بعثَ النبي ﷺ لِيَتِمَّ مكارم الأخلاق<sup>(١)</sup> ، كيف تُنسخ مكارم الأخلاق؟ وقد جاء في القرآن المدني : ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلُعُ عَلَىٰ حَايِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة: ١٣) ، والقرآن المكي : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَّمَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الزخرف: ٨٩).

قال الفخر الرازي : (وقيل : هو منسوخ بآية السيف وهو بعيد ؛ لأن المقصود من ذلك أن يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح ، فكيف يصير منسوخاً؟)<sup>(٢)</sup> . فهذا ليس بمنسوخ .

إيناسُ النبي ﷺ وتسليته :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴾<sup>(٣)</sup>

كلمة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ : فيها نوعٌ من الإيناس ، لم يقل : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ . ولكن ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴾ ، فَإِنَّكَ تستوثق أنه معك ، لَأَنَّ رَبَّكَ ، ليس غريباً عنك ، ولا بعيداً منك ، فهو يُرِيْبُكَ ويرعاك ، وهو يُدَبِّرُ أمرك ، فلا تحزن ممَّا يقابلك به المشركون ؛ لَأَنَّ اللَّهَ مُقَدِّرُهُ وَعَالِمٌ بِهِ ، وسينالون جزاءه .

(١) رواه أحمد (٨٩٥٢) وقال مخرجه : صحيح ، والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣) ، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٦١٣/٢) وقال : على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٥) ، عن أبي هريرة .

(٢) تفسير الفخر الرازي (١٥٨/١٩) .

(٣) الخلاق ، وزنه : فعَّال ، مبالغة من اسم الفاعل من مصدر : خَلَقَ ، وأصله : (خَلْلَاقُ) أدغمت اللام الأولى في الثانية . أي : هو خالقٌ كلِّ ذاتٍ وكلِّ حدثٍ .

قدرة الله تعالى على الخلق :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ ﴾ : الموجد لما يشاء من العدم ، الخالق لجميع المخلوقات على الإطلاق . ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ <sup>(١)</sup> : المحيط بخفايا الأمور ودقائقها . وذلك لأنه خلاق عليم ، فهو قادرٌ على أن يُحيي الموتى <sup>(٢)</sup> ، وأن يُعيد الناس مرةً أخرى ، كما قال عز وجل : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ <sup>(٣)</sup> قل يُحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلقٍ عليمٌ ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴾ <sup>(٤)</sup> أوليس الذي خلق السموات والأرض بقديرٍ على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلق العليم ﴿

(يس: ٧٨-٨١) .

فالخلاق العليم هو القادر على الخلق ، الخلاق يخلق في كل لحظة ، الملايين والبلايين والترليونات والدشليونات من الخلق ، في كل لحظة يُخلق من بني آدم ، ويخلق من الحيوانات ، ويخلق من الزواحف ، ويخلق من الطيور والحشرات ، ويخلق من الأحياء المائية ، يخلق من هذه الأشياء وغيرها ما شاء الله .

### فصائل المخلوقات :

لو نظرت إلى فصائل المخلوقات لوجدت شيئاً عجيباً ، ليست بالملايين ، لا بل بالمليارات ، وأكثر ، ومُنذُ فترةٍ قريبةٍ ذكروا أنّ متحفاً في بريطانيا ، يُخزّن بذور النباتات الموجودة في العالم ؛ لأنّ بعضها يُمكن أن ينقرض في وقتٍ من الأوقات ،

(١) صيغة مبالغة من اسم الفاعل (عالم) من العلم ، وفي هذه الآية ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴾ قصر صفتي الخلاق العليم على الله تبارك وتعالى . وهو قصرٌ حقيقيٌّ من قصر صفة على موصوف . وأداة القصر فيه تعريف طرفي الإسناد .

(٢) والآية كذلك تعلل ما سبق من التوجيه الكريم إلى الصفح الجميل ، فعليك أن تكمل الأمور إلى ربك الخلاق العليم الذي لا يخفى عليه شيءٌ من أمرهم ، ليحكم بينك وبينهم .

فوضعوا البذرة الأخيرة ، وكان ترتيبها في العدد المليار ، وما زالوا يجمعون ، فانظروا إلى أنواع النباتات التي في دنيانا كم وصل عددها؟

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ ﴾ ، هذا كُلُّهُ من خَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (لقمان: ١١) ، ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ١٧) ، اللهُ هو الخلاق : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ۗ .

هو يَخْلُقُ ويعلم ما خَلَقَ وَمَنْ خَلَقَ ، الذي يخلق الشيء ألا يعلمه؟ ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤) يعلم كل ما خلق ، ويعلم الماضي والحاضر والمستقبل .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿١٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿١٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾  
نِعْمُ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ (١) ، يَمْتَنُّ اللهُ تعالى على رسوله ﷺ ، وَيُعَدُّ عَلَيْهِ النِّعَمَ التي آتاه اللهُ إياها ، وهي نِعَمٌ كبرى ، نِعَمٌ عَظْمَى ،

(١) ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَكَ ﴾ أعطيناك وأنزلنا عليك (المثاني) جمع مُثْنَى بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد النون مفتوحة . والمثنى هو المراد المكرَّر ، لتكرَّر قراءته دون سأم أو ملل بل بإقبال نفس وشوق ، وأيضاً لتكرَّر براهينه ومواعظه وقصصه بصور مختلفة لقطع سبل العذر على من يحاول الاعتذار يوم القيامة . (تيسير القرآن الكريم) للشيخ عبد الجليل عيسى . وهذا المعنى هو الذي رجحه شيخنا القرضاوي ، وسيأتي ذكر معنى آخر للمثاني .

لا تُدانيها النعم التي يباهي بها الناس ، ويظنونها كل شيء ، وهي ليست بشيء ، في مقابل ما عند رسول الله ﷺ .

### المراد بالسبع المثاني :

ما السبع المثاني هذه؟ المثاني جمع مثنى ، والمثاني تكرر كلمة اثنين اثنين ، مثنى وثلاث ورباع : ﴿ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ (سبأ: ٤٦) ، المثاني هي الأشياء التي تثنى وتكرر .

ولذلك قالوا : السبع المثاني هذه هي الفاتحة ؛ ولأنها سبعُ آياتٍ بالبسملة ، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه : « والبسملة هي الآية السابعة ، وقد خصكم الله بها »<sup>(١)</sup> .

وقد ثبت في الصحيح أنها السبع المثاني ، فعن أبي سعيد بن المعلّى قال : كنتُ أصلي في المسجد ، فدعاني رسول الله ﷺ ، فلم أجبه ، فقلتُ يا رسول الله ، إنني كنتُ أصلي . فقال : ألم يقل الله : ﴿ أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾؟ (الأنفال: ٢٤) . ثم قال لي : « لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّورِ فِي الْقُرْآنِ ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ » .

ثم أخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج ، قلتُ له : ألم تقل : لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ؟

قال : نعم ، ﴿ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة: ٢) ، هي السبعُ المثاني ، والقرآنُ العظيم الذي أُوتِيَتْهُ<sup>(٢)</sup> .

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٥٤٧/٤) .

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٤٧٤) ، وأحمد (١٥٧٣٠) ، وأبو داود في الصلاة (١٤٥٨) ، والنسائي في صفة الصلاة (٩١٣) ، وابن ماجه في الأدب (٣٧٨٠) .

وجاء في صحاح الأحاديث عن عدد من الصحابة : أنها الفاتحة<sup>(١)</sup> ، وهي سورة الحمد<sup>(٢)</sup> ، وهي أم القرآن<sup>(٣)</sup> وأم الكتاب<sup>(٤)</sup> والسبع المثاني ؛ لأنها تُتلى في الصلوات كل يوم ، تُكرَّر هذه الفاتحة ؛ ولأنَّ فيها قِسْم ثناء وقِسْم دعاء ، فالقسم الأول ثناء : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ ، والقسم الثاني دعاء : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑤ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑥ ﴾ .  
 (الفاتحة: ١-٧) .

وكما جاء في صحيح مسلم ، أنَّ رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : « قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وبين عبدِي نصفين ، ولعبدِي ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال الله : حَمَدَنِي عبدِي .

فإذا قال : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ . قال الله : أثنى عليَّ عبدِي .

فإذا قال : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ . قال : مَجَدَّنِي عبدِي .

فإذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . قال : هذا بيني وبين عبدِي ، ولعبدِي ما سأل .

(١) سميت بالفاتحة ، لأنه بها افتتح القرآن ، وبها تفتتح كتابة المصاحف ، وبها تفتتح الصلاة .

(٢) سُمِّيَتْ بالحمد ؛ لافتتاحها بالحمد لله .

(٣) سُمِّيَتْ بأم القرآن وأم الكتاب ؛ لأنها أوَّلُه ، ومتضمَّنة لجميع علومه ، ولا شتمالها على

أهمِّ موضوعات القرآن ، وفي حديث الترمذي (٣١٢٤) عن أبي هريرة قال : قال

رسول الله ﷺ : « الحمد لله أم القرآن ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني » قال : هذا حديث

حسن صحيح .

(٤) وسُمِّيَتْ بالفاتحة ؛ لأنه يبتدأ بكتابتها في المصاحف ، ويبدأ بقراءتها في الصلاة .

فإذا قال : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ . قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»<sup>(١)</sup> .

### الفاتحة خلاصة القرآن :

على كلِّ حال جاءت الأحاديث تقول : إنَّ الفاتحة هي السبع المثاني<sup>(٢)</sup> ، وكما قال الإمام ابن القيم في كتابه : (مدارج السالكين ، شرح منازل السائرين إلى مقامات إياك نعبد وإياك نستعين) ، ذكر :

(وسرُّ الخلق والأمر ، والكتب والشرائع ، والثواب والعقاب : انتهى إلى هاتين الكلمتين ، وعليهما مدار العبودية والتوحيد ، حتى قيل : أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب ، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن ، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن ، وجمع معاني القرآن في المفصل ، وجمع معاني المفصل في الفاتحة ، ومعاني الفاتحة في إياك نعبد وإياك نستعين .

وهما الكلمتان المقسومتان بين الربِّ وبين عبده نصفين ، فنصفهما له تعالى ، وهو إياك نعبد . ونصفهما لعبده ، وهو إياك نستعين)<sup>(٣)</sup> .

وكما قال شيخنا سماحة الشيخ محمد عبد الله دراز رحمه الله : (القرآن هو دُستور الإسلام ، والفاتحة هي دُستور القرآن ، فهي دستور الدستور)<sup>(٤)</sup> . ولذلك امتنَّ الله بها : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي ﴾ .

- 
- (١) رواه مسلم في الصلاة (٣٩٥) ، وأحمد (٧٢٩١) ، وأبو داود في الصلاة (٨٢١) ، والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٥٣) ، والنسائي في الصلاة (٩٠٩) وابن ماجه في الأدب (٣٧٨٤) ، عن أبي هريرة .
- (٢) وإنما وصفت بأنها (مثنائي) لأنَّ بين جملها مطويات من المعاني جامعة لكلِّيات كبرى من كلِّيات الدين ، جاء بيانها التفصيلي في سائر سور القرآن .
- (٣) مدارج السالكين (٧٤/١) .
- (٤) مقال بعنوان : (نظرات في فاتحة الكتاب الحكيم) ، نشر في مجلة (المجلة) العدد (٧) ، ذو الحجة ١٣٧٦هـ ، يولييه ١٩٥٧م .

## أقوال أخرى في معنى السبع المثاني :

هناك أقوال أخرى منها : أَنَّ السَّبْعَ المَثَانِي هي : السَّبْعُ الطَّوَالُ أو الطُّوَلُ ، وهي : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، وعدوا الأنفال والتوبة سورةً واحدةً . ومن المعلوم أَنَّ هذه السور - أي : السَّبْعَ الطَّوَالِ - سور عظيمة ، ولكن هذه السور كلها مدنية ، وسورة الحِجْرِ التي معنا الآن سورة مكية ، لم يَكُنْ قرأها النبي ﷺ قبلها ، ولم ينزل بهنَّ جبريل عليه السلام على قلبه ، ولذلك القول الأرجح أَنَّ السَّبْعَ المَثَانِي هي : الفاتحة .

## عطف العام على الخاص :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ المَثَانِي وَالْقُرْآنَ العَظِيمَ ﴾

هذا يُسَمِّيهِ العلماء عطف العام على الخاص ، والكل على الجزء ، تقول : جاء الأمير والقوم ، والقوم فيهم الأمير ، ومثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ (آل عمران: ٨٤) ، إِنَّمَا ذَكَرَ تخصيص الأول ثم التعميم ، يعني تهتم بالخاص ثم تذكر العام ، فتكون ذكرت الخاص مرتين : مرّة بالنص عليه ، ومرّة بالاندراج في العام . فالسبع المثاني هي جزء من القرآن ، ولكن ذكروها لخصوصها ، لأهميتها ، ليلفت النظر إليها .

## القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز :

ثم قال : ﴿ وَالْقُرْآنَ العَظِيمَ ﴾ ، آتيناك القرآن العظيم ، هذا الكتاب الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ البَطْلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّن حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢) ، ﴿ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُن حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود: ١) ، كتاب الهداية ، كتاب التشريع ، كتاب الأحكام ، كتاب الأخلاق ، كتاب العبادات ، كتاب المعاملات ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ٨٩) .

الكتابُ المُعْجِزُ ، الذي أعجزَ البشرَ أن يأتوا بكتابٍ مثله : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (الطور: ٣٤) ، أو ﴿ بَعْشَرَ سُورٍ مِثْلِهِ ﴾ (هود: ١٣) ، أو ﴿ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ (البقرة: ٢٣) ، فلم يستطيعوا ، وحقَّ عليهم قولُ الله تعالى : ﴿ قُلْ لِيِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨) ، القرآن ، هذا الكتاب العظيم .

مدى نعمة الله على الأمة بالقرآن العظيم :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ ، فلا بدَّ أن تعرف مدى نعمة الله عليك ، ومدى إحسانه إليك ، حينما آتاك هذا القرآن ، أدخره لك ولأمتك ، لم يُنزله على أيِّ أمةٍ ، أدخر الله هذا الكتاب القرآن لأمةِ الخلود ، آخر أمةٍ ، آخرُ دين هو الإسلام ، آخرُ رسول هو محمد ﷺ ، آخرُ كتاب هو القرآن ، أدخره لأفضل رسولٍ مبعوثٍ إلى أفضل أمةٍ ، بأفضل شريعة .

من أسماء القرآن الكريم وأوصافه :

وصف الله القرآن ببعضِ الأسماء والأوصاف التي وصف بها نفسه ، يعني إذا تأملنا في القرآن ، نجد أن الله وصف القرآن بعددٍ من أسمائه الحسنى :

العظيم : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ (الحجر: ٨٧) ، والعظيم من أسماء الله الحُسنى .

الحكيم : ﴿ يَسَّ ۝ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴾ (يس: ١) ، والحكيم من أسماء الله الحُسنى .

الكريم : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ (الواقعة: ٧٧) ، والكريم أيضًا من أسماء الله الحُسنى .

العلي : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾ (الزخرف: ٤) ، والعلي أيضاً من أسماء الله الحسنی .

العزیز : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ (فصلت: ٤١) ، أيضاً العزیز من أسماء الله الحسنی .

المجید : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾ (البروج: ٢١) ، والمجید من أسماء الله الحسنی .

النور : ﴿ وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ (الأعراف: ١٥٧) ، النور من أسماء الله .

كلُّ هذه الأسماء من أسماء الله ، سمى الله بها هذا الكتاب ، القرآن العظيم .

وقد جاء عن بعض السلف : « مَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ ، ثُمَّ رَأَى أَنْ أَحَدًا قَدْ أُوتِيَ أَحْسَنَ مِمَّا أُوتِيَ ، فَقَدْ صَغَّرَ مَا عَظَّمَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا »<sup>(١)</sup> . مَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ ، عَلَّمَهُ الْقُرْآنَ ، حَفَظَهُ الْقُرْآنَ ، فَهَمَّهُ الْقُرْآنَ وَاسْتَصَغَّرَ هَذِهِ النِّعْمَةَ ، وَرَأَى مَنْ عِنْدَهُ أَمْوَالٌ أَهَمَّ مِنَ الْقُرْآنِ ، يَكُونُ قَدْ صَغَّرَ نِعْمَةَ اللَّهِ الْعَظِيمَةَ ، صَغَّرَ مَا عَظَّمَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا .

التَّحذِيرُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا :

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾

إِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ آتَاكَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ، أَفَيْسُوعُ لَكَ أَنْ تَمُدَّ عَيْنَيْكَ وَتَنْظُرَ نَظْرَ تَشَهُ إِلَى الَّذِينَ يَتَمَتَّعُونَ بِالدُّنْيَا ، إِلَى أَصْحَابِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ ، إِلَى أَصْحَابِ الْقُصُورِ وَالْمَتَاعِ ، هَذِهِ كُلُّهَا أَشْيَاءٌ تَافَهُةٌ بِجِوَارِ مَا آتَاكَ اللَّهُ مِنَ السُّبْعِ الْمِثَانِيِّ وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ .

وهذه هي وصية الله الثانية لرسوله ، بعد وصيته الأولى بالصفح الجميل .

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان باب تعظيم القرآن (٢٥٩٣) ، والبخاري في تاريخه الكبير (٣١/٣) ، بلفظ : « من أعطاه الله عز وجل حفظ كتابه ، لو ظن أن أحداً أُوتِيَ أفضل مما أُوتِيَ فقد غبط أفضل النعم » عن رجاء الغنوي ، مرفوعاً ، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (١٨١١) : ضعيف جداً .

وقال في سورة أخرى ، في سورة طه : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِمْ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۗ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۗ ﴾ (طه: ١٣١) ، فتنة لهؤلاء ، ﴿ اُنْحَسِبُونَ أَنَّما نُمدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٦﴾ نُسارعُهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥٦، ٥٥) .

### المال فتنة وابتلاء :

من يقول : إنَّ المَالَ نعمة؟ ﴿ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ ، هو فتنة ، قد يكون نعمة ، وقد يكون فتنة ، هو ابتلاء ، في حال السَّعة والقلَّة : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴾ (الفجر: ١٥، ١٦) ، أي : ليس الأمر كما تتوهَّمون ، فليست كثرته دليلاً على الإكرام ، وليست قلته دليلاً على الإهانة ، بل هو في الحالين محنة وابتلاء .

### قيمة الدنيا عند الله عزَّ وجلَّ :

الحياة الدنيا أياَّم معدودةً وأنفاسٌ محدودة ، ثمَّ يرحل النَّاسُ إلى الحياة الباقية ، الدنيا كما يُسمونها دار مَمَرٍّ ، لا دار مَقَرٍّ ، الدنيا فَنَطْرَةٌ ، فاعبروها ولا تعمروها ، الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، و« لو كانت تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء »<sup>(١)</sup> .

لهذا قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا ﴾ كراهة ذلك ﴿ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي : أمة واحدة تجتمع على الكفر ، ﴿ لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَوَّنُ ﴿٦٧﴾ وَزُخْرُفًا ۗ ﴾

(١) إشارة إلى جزء من حديث رواه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠) وقال : صحيح غريب ، وابن ماجه في الزهد (٤١١٠) ، والحاكم في الرقائق (٣٠٦/٤) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، وقال الذهبي : زكريا بن منظور ضعفه ، وقال الألباني في الصحيحة (٦٨٦) : صحيح لغيره ، عن سهل بن سعد .

وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿  
 (الزخرف: ٣٣-٣٥) ، فإذا كانت الدنيا لا تَرِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، فماذا يكون  
 نصيب الإنسان من جناح البعوضة!؟

الكفار المعاندون لا يستحقون الحزن عليهم :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾

إذا كانوا لم يؤمنوا بك لا تحزن عليهم ، ولا تغتم وتتألم ، فهم لا يَسْتَحِقُّونَ  
 الْحُزْنَ ، لا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ، ذلك لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان حريصاً عليهم ،  
 حريصاً على أَنْ يَدْخُلُوا فِي هَذَا الدِّينِ ، حريصاً على أَنْ يَسْتَبِيرُوا بنور القرآن ،  
 حريصاً على أَنْ يَهْتَدُوا بهُدَى اللَّهِ ، ولذلك كان أحياناً يَحْزَنُ وَيَشْقَى ، ولذلك قال  
 الله تعالى : ﴿ طه ١٠١ ﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿ (طه: ١٠١) ، ﴿ فَلَعَلَّكَ بِنَجْعِ  
 نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (الكهف: ٦) ، ﴿ وَأَصْبِرْ  
 وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۗ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿  
 (النحل: ١٢٧) ، ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ (فاطر: ٨) .

لا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ ، لا تَشْغَلْ نَفْسَكَ بِالْحُزْنِ عَلَيْهِمْ ، لقد أدت ما عليك ، أبلغتهم  
 الرسالة ، وبشرتهم وأنذرتهم ، وأقمت عليهم الحجة ، وجئتهم بالبينات ، وأصبحوا  
 هم الذين يتحملون المسؤولية . وهذه هي الوصية الثالثة لرسول الله ﷺ .

العناية بالمؤمنين المتبعين لدعوة الحق الربانية :

﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

لا تهتمَّ بالمشركين ، ولكن اهتم بمن آمنوا بك ، بالذين أتبعوك ، بالذين قَبِلُوا  
 دَعْوَتَكَ ، بالذين استعدوا أَنْ يَبْذُلُوا كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِ الدَّعْوَةِ الَّتِي آمَنُوا بِهَا ، كن  
 دائماً مع هؤلاء ، ودعك من هؤلاء ، فالمؤمنون هم العُصْبَةُ الَّذِينَ يَقِيمُ اللَّهُ بِهِمُ  
 الْحُجَّةَ ، وينصر الله بهم الدين ، ويعزُّ بهم الإسلام ، ويعلي بهم كلمته ، ويرفع بهم

رايته : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٦٤) .  
وهذه هي الوصية الرابعة من الوصايا العشر لرسول الله ﷺ .

التواضع ولين الجانب مع المؤمنين :

﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، كلمة (اخفض جناحك) كناية عن التعامل باللين والرفق والتواضع ، وهي مأخوذة من الطائر إذا أراد أن يحتضن فراخه ، يخفض جناحه لهم ، ويجعلهم تحت جناحه .

وفي سورة الشعراء : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٥) ، وهنا ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، والله تعالى وصفه بقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨) ، ولذلك أمر بخفض الجناح<sup>(١)</sup> .

دلالة كلمة (قل) في خطاب الرسول ﷺ :

﴿ وَقُلْ إِنِّي - أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾

﴿ وَقُلْ إِنِّي - أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ ، أبلغهم بهذه الرسالة ، وليس عليك إلا أن تنذرهم .

وكلمة : (قل) - كما أشرنا غير مرة - تدل على أن هذا الرسول يتلقى ، ويؤمر : ﴿ وَقُلْ إِنِّي - أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ ، بعض الناس خيّل له في وقت من الأوقات ، أن نحذف (قل) من القرآن ، في (قل هو الله أحد) والمعوذتين ، نقول : هو الله أحد ، أعوذ برب الفلق ، أعوذ برب الناس ، ونسي هذا الجاهل الأحمق أن هذه تدل على

(١) وهكذا كان حاله عليه الصلاة والسلام مع أصحابه ، كما قال جلّ جلاله في وصفه : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩) ، وهكذا ينبغي أن يكون حال المؤمنين فيما بينهم ، يتواضعون ويتراحمون ، كما كان حال الصحابة رضی الله عنهم : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح: ٢٩) ، وكما وصف الله عباده المؤمنين : ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة: ٥٤) .

أَنَّ الرَّسُولَ مَأْمُورٌ وَمَنْهِيٌّ ، وَمَخَاطَبٌ مِنْ سُلْطَةِ عَلِيَا ، وَهِيَ قِرْآنٌ مُبِينٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يَحْذَفَ وَلَا أَنْ يُسْقَطَ .

البشير النذير ﷺ وسبب تخصيصه بالإندار في هذه السورة :

هو ﷺ نذيرٌ وبشيرٌ ، لِأَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ رُسُلَهُ : ﴿ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (النساء: ١٦٥) .

وقال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٤٥) ،  
وقال تعالى على لسان رسوله : ﴿ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾  
(الأعراف: ١٨٨)

فلماذا قال هنا : ﴿ وَقُلْ إِنِّي - أَنَا - النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ ؟ ، التَّبَشِيرُ : هو الإخبارُ بما يَسْرُ . والإندارُ : هو الإخبارُ بما يَسُوءُ . وهو يُبَشِّرُ أهلَ الإيمانِ والطَّاعةِ بالجنةِ في الآخرةِ والسعادةِ في الدنيا ، وينذرُ أهلَ الكفرِ والمعصيةِ والفسوقِ بالنارِ في الآخرةِ وبالشقاءِ في الدنيا ، لماذا لم يذكر هنا البشارة؟ لأنَّ المقامَ هنا مقامُ النَّذارةِ ، أحيانًا يقتصرُ القرآنُ على الإندارِ دونِ التَّبَشِيرِ ، وهذا تَكَرَّرَ في كثيرٍ من الآياتِ : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (هود: ١٢) ، ﴿ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (ص: ٦٥) ، ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (الرعد: ٧) .

وهكذا ، فهو منذرٌ ونذيرٌ ، أي : إنَّ مهمتهِ عندمَا يُكذِّبُ المُكذِّبُونَ ، وَيَكْفُرُ الكافرونَ ، وَيَتَمَرَّدُ العَصاةُ على ربِّ العالمينَ ، في هذه الحالةِ ليس أمامه إلا الإندارُ ، لا يستحقُّون البشارةَ ، هو نذيرٌ في هذه الحالةِ ، ولذلك يقولُ اللهُ تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر: ٢٤) ، فيمكنُ أن نقولَ عن الرُّسُلِ في بعضِ الأحيان : إنهم نُذِرٌ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، لِيُخَوِّفُوا المُكذِّبِينَ بعواقبهم في الآخرةِ ، وَمَصَايِرَهُمْ في الدنيا . وهذه هي الوصيةُ الربانيةُ الخامسةُ لرسولِ اللهِ من ربه .

موقف المشركين من القرآن :

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٤٩﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾

هل المقتسمون ، من القَسَمَ بمعنى اليمين ، أم مِنَ القسمة ؟ احتمالان عند المفسرين .

فالمقتسمون هم الذين تقاسموا وحلفوا فيما بينهم ، كما تقاسم جماعة ثمود على سيدنا صالح ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ (النمل: ٤٩) ، يدبرون قتله بيّاتاً بالليل . أو من القسمة ، أي : تقاسموا فيما بينهم أن يجعلوا القرآن عَضِينَ ، جزؤوا القرآن كأعضاء لحم الجزور أو الشاة ، فقسّم من القرآن آمنوا به ، وقسم كفروا به ، فما يعجبهم آمنوا به ، وما لا يعجبهم كفروا به : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ﴾ (الزمر: ٤٥) .

من هم المقتسمون الذين جعلوا القرآن عَضِينَ ؟

الرأي الأول : بعضهم قالوا : إنهم اقتَسَمُوا مداخل مكة ، وزَعُوا أنفسهم ، خصوصاً في مواسم الحج ومواسم العمرة ، حينما تأتي قبائل العرب إلى مكة ، فيسألون عن محمد وعن الدين الجديد ، وعن الدعوة الجديدة ، قالوا : كان هناك ستة عشر رجلاً ، وبعضهم قال : أربعون رجلاً ، وزَعُوا أنفسهم على طُرقات مكة ومداخلها ، فَمَنْ سأل عن محمد وعن دين محمد ، فمنهم مَنْ يقول لهم : هو مجنون . ومنهم مَنْ يقول : هو ساحر . ومنهم مَنْ يقول : هو كاهن . ومنهم مَنْ يقول : هو شاعر . ومنهم مَنْ يقول عن القرآن : ﴿ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أَكْتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿ (الفرقان: ٥) . ومنهم مَنْ يقول : إنه قول شاعر أو قول كاهن . وهكذا ، وزَعُوا أنفسهم ، وهذا أحد الآراء ، أنَّهُم من أهل مكة ، ومن المشركين الذين جَعَلُوا القرآن عَضِينَ ، وقَسَمُوهُ هذا يقول : سحر . وهذا يقول : كهانة . . . إلخ .

الرأي الثاني : وهناك رأيٌ يقول : إنهم من أهل الكتاب ، من اليهود ومن النصارى ، الذين آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه ، فما وافق فيه كتابهم قالوا : آمناً به ، وما خالف فيه كتابهم لم يؤمنوا به ، كما قال الله في خطابهم : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ (البقرة: ٨٥) ، فهؤلاء جعلوا القرآن عِضِينَ .

ومعنى عِضِينَ : جمع مفردة عِضَّةٌ - بكسر ففتح - وزنه : فِعَّةٌ ، أي : أعضاء ، وهو تفسير للتقسيم قبله ، أي : جعلوه أجزاءً ، جزؤوا القرآن ، جعلوه قطعاً ، آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، حذفوا وأخفوا ما لم يوافق أهواءهم . والقرآن كلٌّ لا يتجزأً ، لا يجوز الإيمان ببعضه والكفر ببعضه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَحْذَرْتُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (المائدة: ٤٩) ، لا بدَّ أن يُؤَخَذَ القرآن كله ، وأن يُؤْمَنَ بالقرآن كله ، فهؤلاء جعلوا القرآن عِضِينَ .

سؤال المقتسمين عن أعمالهم :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ فَوَرَبِّكَ ﴾ ، خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ، فهذه الآيات كلها خطاب للنبي ﷺ وشدَّ لأزره .

﴿ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : مجتمعين لا يتخلف منهم أحد . وضمير الجماعة يعود على المقتسمين ، والسؤال للتوبيخ والتبكي . وهو يشمل كل المقتسمين ، من أهل الشرك ، وهم الأغلب أو من أهل الكتاب . ﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في الحياة الدنيا ، هؤلاء سيقفون بين يدي الله عزَّ وجلَّ يوماً ويسألهم عن أعمالهم أجمعين .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، لن يفلت أحدهم من المسألة - يا محمد - من أجل ماله ، أو من أجل سلطانه ، أو من أجل أتباعه وجنوده ، لا ، كلهم سيُسألون أجمعين عما كانوا يعملون .

لن يفلت منهم أحد ، لا كبير ، ولا صغير ، ولا غنيٌ ولا فقير ، ولا أميرٌ ولا مأمور ، كلُّهم مسؤولون . جاء عن بعض السلف : أن الناس سيُسألون يوم القيامة عن أمرين : عن توحيد الله : ﴿ أَيُّنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ (الشعراء: ٩٢) ، وعن النبوة : ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (القصص: ٦٥) . وسيُسأل الإنسان أيضاً عن النعيم : ﴿ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (التكاثر: ٨) .

وجاءت الأحاديث أن الإنسان يُسأل يوم القيامة : « عن عُمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه؟ »<sup>(١)</sup> .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، يُسألون عن أعمالهم خيراً كانت أم شراً ، صلاحاً كانت أم فساداً ، يُسأل الإنسان عن عمله ، فعليه أن يُحضّرَ للسؤال جواباً ، كما قال بعض السلف : اسألوا أنفسكم قبل أن يصير السؤال إلى غيركم ، حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن تُوزن عليكم .

أما قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ (الرحمن: ٣٩) ، فالمراد به نفي سؤال الاستعلام .

الأمر بالجهر بالدعوة :

﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾

اصدع : اجهر بما تؤمر ، وبلغ الناس رسالتك جهاراً وعلانية . فقد كانت الدعوة سرّاً وخفية حتى نزلت هذه الآية تأمر بالجهر والإعلان ، يقول سيّدنا عبد الله

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٤١٦) وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ إلا من حديث الحسين بن قيس ، وحسين بن قيس يُضعف في الحديث من قبل حفظه ، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٢٨) : حسن لغيره ، عن ابن مسعود .

ابن مسعود رضي الله عنه : كان الصحابةُ والنبيُّ ﷺ يَسْتَحْفُونَ بدعوتهم ، فلما نزلت هذه الآية : صَدَعَ الرسول بالدعوة دون تَوَانٍ ولا تقصير<sup>(١)</sup> .

كلمة الصَّدَع في اللغة تعني : الشَّق ، من صدع الزجاج أو غيره ، وهنا بمعنى : الجهر والإعلان ، لأن الصَّدَعَ يُحْدِثُ صوتًا .

هنا لا بدُّ مِنَ الجهر ، الإعلان بالدعوة ، لا معنى للإسرار بالدعوة الآن ، يجب أن يجهر الجميع بالدعوة ، فاجْهَر بالدعوة ولا تُخَافَت بها وأعلنها ، فأنت صاحبُ الحقِّ ، ولا ينبغي لصاحب الحقِّ أن يخافت به ، بل الحقُّ ينبغي أن يرتفع صوته ، ويعلو مناره .

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ، بما أمرك الله به : بكل ما جاء به القرآن ، من عباداتٍ ومعاملاتٍ وأخلاقٍ وتشريعاتٍ وعقائدٍ ، كلُّ هذا ، وكلُّ ما تُؤْمَرُ به ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ (المائدة: ٦٧).

الأمر بالإعراض عن المشركين :

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾

لا تَشْغَلِ نفسك بالمشركين ، أعرض عنهم ، ولا تلتفت إلى ما يفعلون ولا تُخَاصِمِهِمْ ، ولا تَأْبَهُ بمعارضتهم ، وعِنَادِهِمْ ، ولا تَخَفِهِمْ ، فإنَّ الله كافيك مكرهم ، وحافظك من كيدهم ، كما جاء في أكثر من آية في القرآن : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ١٠٦) ، ﴿ فَأَعْرِضْ عَنِ مَنْ تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (١) ذَلِك مَبْلُغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴿ (النجم: ٢٩، ٣٠) ، ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ (السجدة: ٣٠) ، ﴿ حُذِرِ الْعَفْوَ وَأُمِرَ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩) .

(١) سيرة ابن هشام (١/٢٣٧) .

أعرض عن المشركين ، لا تشغل نفسك بهم ، وقال : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ  
وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٤٨) .

حتى المنافقين : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ  
وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ (النساء: ٦٣) ، ﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ  
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (النساء: ٨١) ، أي : اشغل نفسك  
بالدعوة ، لا تشغل نفسك بهؤلاء ، أعرض عنهم ، تول عنهم ، لا تُعيرهم التفاتة .

وقد تضمنت هذه الآية وصيتين : السادسة ، وهي قوله تعالى : ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا  
تُؤْمَرُ ﴾ ، والسابعة وهي قوله : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

كفاية الله لرسوله أمر المستهزئين :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾

وتأتي المعونة من الله على قدر التكليف والمؤنة ، فعندما كلفه بإعلان الدعوة  
والجهر بها أخبره سبحانه بكفايته وحمايته عليه الصلاة والسلام من كيد المستهزئين  
وأذاهم ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ ، الساخرين المتهاكمين ،  
نحن كفيناك أمر هؤلاء ، وقيناك شر هؤلاء ، وأغيناك عن مجابهتم ، فلا تحمل  
همهم ، كما قال له : ﴿ يَتَأْتِيَ الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ  
فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾  
(المائدة: ٦٧) ، لا تخف ، فالله يعصمك من الناس .

هنا يقول أيضاً : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ ، الذين يستهزؤون بك  
وبدعوتك وبقرائك وبأتباعك ، كل هذا يجعلونه مصدراً للهزاء والسخرية ، حتى

الأتباع الضعفاء الفقراء يسخرون منهم ، فيقول : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ ،  
كأن الاستهزاء أصبح صفةً ثابتةً لهم ، تُعْرَفُ بهم ويُعْرَفُونَ بها<sup>(١)</sup>.

المستهزؤون يشركون مع الله إلهًا غيره :

﴿ الَّذِينَ تَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾

هؤلاء المستهزؤون يكفيهم شرًا أنهم يعبدون مع الله إلهًا أو آلهةً أخرى ، لا تُضُرُّ  
ولا تُنْفَعُ ، ولا تُبْصِرُ ولا تَسْمَعُ ، ولا تُعْطِي ولا تَمْنَعُ ، لا يملكون لأنفسهم ضرًا

(١) ذَكَرَ أصحاب السِّيرِ أَنَّ المستهزئين بالرسول ﷺ هم أكابر المشركين في الكفر والعداوة ،  
وذكروا منهم خمسة ، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم ، وهم : الوليد بن المغيرة ، من  
بني مخزوم ، وكان رأس المستهزئين ، والأسود بن عبد يغوث من بني زهرة ، والأسود  
ابن المطلب ، من بني أسد بن عبد العزى بن قصي ، والحارث بن الطلائفة من خزاعة ،  
والعاص بن وائل من بني سهم ، وكلُّ هؤلاء أهلكتهم الله جميعًا في مكة ، وكان هلاكهم  
العجيب من أهم الصوارف لأتباعهم عن الاستهزاء بالنبي ﷺ .

قال ابن إسحاق : حَدَّثَ يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير ، أو غيره من العلماء : أَنَّ  
جبريل أتى رسولَ الله ﷺ وهو يطوف بالبيت ، فقامَ وقَامَ رسولَ الله ﷺ إلى جنبه ، فمرَّ  
به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء ، فعمي .

ومرَّ به الأسود بن عبد يغوث ، فأشار إلى بطنه ، فاستسقى بطنه ، فمات منه حَبْنًا - داء في  
البطن يَعْظُمُ منه وَيَرِمُ - .

ومرَّ به الوليد بن المغيرة ، فأشار إلى أثر جرحٍ بأسفل كعب رجله - كان أصابه قبل ذلك  
بستين - وهو يَجْرُ إزاره ، وذلك أَنَّهُ مرَّ برجلٍ من خزاعة يريش نَبْلًا له ، فَتَعَلَّقَ سهم من  
نَبْلِهِ بإزاره ، فَخَدَّشَ رجله ذلك الخَدَّشَ ، وليس بشيء ، فانتقض به فقتله .

ومرَّ به العاص بن وائل ، فأشار إلى أخمص قدمه ، فخرج على حمار له يريد الطائف ،  
فَرَبَّضَ - أي : الحمار - على شِبْرَقَةٍ - نباتٌ حجازي يؤكل وله شوك ، وإذا يبس سُمِّيَ  
الضريع - فدخلت في أخمص رجله منها شوكة فقتلته .

ومرَّ به الحارث بن الطلائفة ، فأشار إلى رأسه ، فامتخط قيحًا ، فقتله . ينظر : السيرة  
النبوية لابن هشام (٢/٢٥٧).

ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ ءِالِهَةً لَا تَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَوَةً وَلَا نُشُوراً ﴾ (الفرقان: ٣) ، هؤلاء يجعلون مع الله إلهاً آخر ، يكفيهم هذه التهمة ، يكفيهم هذه الجريمة ، أنهم أشركوا مع الله إلهاً غير الله ، ولا يستحق العبادة أحدٌ إلا الله وحده : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيماً ﴾ (النساء: ٤٨).

تهديد ووعيد :

### ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

هذا تهديدٌ ووعيدٌ بالانتقام من الله عزَّ وجلَّ ، للذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ، افتراءً عليه ، فسوف يعلمون ويدركون باليقين والعيان عاقبة أمرهم ، وجزاء كفرهم ، واستهزائهم برسوله ، ونتيجة سوء أعمالهم من عذابٍ أليم في نار جهنم .

إرشادُ النبي ﷺ إلى ما يُزيل همَّه ويشرح صدره :

﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾

ثمَّ حُتِمَتِ السُّورَةُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ : ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (١).

(١) وفيها تتممة الوصايا للنبي ﷺ وهي : الوصية الثامنة : أن يسبح بحمد ربِّه ، والوصية التاسعة : أن يكون من الساجدين له ، والوصية العاشرة : أن يستمر على عبادة ربه ، ويقوم بوظائف رسالته الدعوية ، حتى يأتيه الموت الذي تنتهي به حياته .

خطابُ للنبيِّ ﷺ مِنْ رَبِّهِ : ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْمُ ﴾ ، الألام هنا موطئةٌ للقسم ، و(قد) للتحقيق ، وهذا لتأكيد الكلام<sup>(١)</sup> .

﴿ وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَنْكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾

﴿ يَضِيقُ صَدْرُكَ ﴾ ينقبض ويغتم ويعجز عن التَّحْمَلِ ، والرَّسُولُ بشرٌ من البشر ، يُؤذِيهِ وَيُحْزِنُهُ ، ويضيق صدره ، وتَنَالَمَ نفسه بِمَا يَسْمَعُهُ مِنْ كَلَامٍ مُؤذٍ عَنِ الْقُرْآنِ ، ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى ﴾ (القصص: ٣٦) ، ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ تُجَدِّدُ لَوْنَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (الأنعام: ٢٥) ، وَأَنَّهُ ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴾ (الحاقة: ٤١، ٤٢) ، هذا آذاه .

إذا سمع الكلام عن شخصه عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (١٦) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿

(الطور: ٢٩، ٣٠) .

الكلام عن دينه وتعاليمه ، الكلام عن الصحابة ، وفي آيات أخرى يقول الله تعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (المزمل: ١٠) ،

(١) التحقيق هنا بـ (قد) ، وإن كانت قبل الفعل المضارع ، لأنَّ هذا الفعل يفيد الماضي والحاضر والمستقبل . فالله سبحانه يؤكد لرسوله بعبارة (لقد) مع مخاطبته له بضمير المتكلم العظيم ، أنه جل جلاله أحاط علمه بكل شيء ، يعلم حتى ما يحدث في صدره ﷺ من انقباض نفسي وضيق بسبب ما يقوله الكفار من أقوال فيها كفر وغمز وتجريح . وإنه تأكيد علم الله بما يضيق به صدر نبيه الأمين تسرية لنفسه ، وفيه كمال معاونته ، وفيه مع كل هذا ما يفيد الإنذار للمشركين على ما يقولون . وأوصاه عز وجل بثلاث وصايا تزيل همَّه وتشرح صدره : الأولى : أن يُسَبِّحَ بحمد ربه ، والثانية : أن يكون من الساجدين المصلين الخاضعين له سبحانه . والثالثة : أن يتابع عبادته لربه ، وأن يقوم بوظائف رسالته التي اصطفاه الله لها من دون سائر خلقه ، حتى آخِرِ لحظة ، من عمره في الحياة الدنيا . وهذه الوصايا الثلاث هي تَمَّةُ الوصايا السبع التي تقدَّمت في مطلع هذا الدرس الأخير من هذه السورة .

﴿ وَلَا تَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ (يونس: ٦٥) ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ قَدْ يُؤْذِي أَشَدَّ مِنْ التَّعْذِيبِ الْجَسَدِيِّ ، عِنْدَ مَا يَضْرِبُ شَخْصٌ شَخْصًا آخَرَ ، هُوَ يُؤْلِمُ جَسَدَهُ ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا تَقُولُ لِأَخِيكَ : كَلِمَةً سَيِّئَةً ، هَذِهِ تُؤْذِي النَّفْسَ ، التَّعْذِيبُ يَجْرَحُ الْجَسَدَ ، وَالْأَذَى الْقَوْلِيُّ يَجْرَحُ الْقَلْبَ .

جَرَاحَاتُ السِّنَانِ هِيَ التَّامُّ وَلَا يَلْتَامُ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ  
يُمْكِنُ لِجُرْحِ السِّنَانِ وَجُرْحِ السَّكِينِ أَوْ السِّيفِ أَنْ يُدَاوَى وَيَلْتَمَ ، أَمَّا جُرْحُ الْقَلْبِ بِالْكَلَامِ الْمُؤْذِي وَالْكَلَامِ الْكَاذِبِ وَالْكَلَامِ الْمُخْتَلَقِ ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ لَهُ فِيهِ : ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ .

وَمِنْ أَشَدِّ الْأُمُورِ الَّتِي كَانَتْ تُؤْذِي النَّبِيَّ ﷺ ، أَنَّهُمْ قَالُوا عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : أَنْ لَهُ وَلَدًا : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينُونَ ﴾ (البقرة: ١١٦) ، ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .  
(الإخلاص: ٣، ٤) .

وَقَالُوا : الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنْتِنَا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ (الزحرف: ١٩) .

وَقَالُوا : عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ . وَقَالُوا : الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْتَهُمُ اللَّهُ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٠) .

وَقَالُوا إِنَّ اللَّهَ شُرَكَاءُ : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (الأنعام: ١٠٠) .

وَقَالُوا إِنَّ اللَّهَ أُنْدَادًا : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ (البقرة: ١٦٥) ، وَقَالُوا وَقَالُوا . . آذُوا اللَّهَ

سبحانه وتعالى بهذه الافتراءات ، وآذوا نبيّه ﷺ ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْمُ  
أَنْتَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ .

مقابلة الأذى بتسبيح الله وحده :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾

بماذا تقابل هذه الأقوال الكاذبة والمؤذية ؟ قَابِلُهَا بذكر الله ، بالتسبيح ، باللجوء  
إلى الله ، باللياذ بالله عزَّ وجلَّ كي يذهب عنك ما تجده في صدرك من ضيق  
وحزن :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ، أي : نزه الله عمَّا يصفون ويشركون .

والحمد : الثناء الجميل على النعم بالقلب واللسان والعمل<sup>(١)</sup> .

الإنسان المؤمنُ في حالة النصر يُسَبِّحُ بحمد الله ، وفي حالة الضيق والشدة يُسَبِّحُ  
بحمد الله ، ولذلك قال الله لرسوله : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١٠﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ  
يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿١١﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾  
(النصر: ١-٣) ، فإذا نزلت بك الشدائد ، سَبِّحْ بحمد ربك . وكذلك إذا منَّ الله عليك  
بالفتح أو بنصر من عنده ، فلا تَنْسَ تسبيح الله وحمده ، فالتسبيح بحمد الله مطلوب  
في وقت الشدائد ، وفي وقت النصر والعافية .

سَبِّحْ بحمد ربك عند النصر ، وسَبِّحْ بحمد ربك عند الشدة ، وسَبِّحْ بحمد ربك  
في السراء والضراء ، في النعماء والبأساء ، في الهزيمة والنصر ، في كلِّ وقت كن  
مسبحًا بحمد الله عزَّ وجلَّ .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ، إذا ضاق صدرك بأقوال هؤلاء الباطلة ، فنزه ربَّك جلَّ  
وعلا عن كلِّ ما لا يليق بكماله وجلاله ، مع الثناء عليه بجميع ما هو أهله من  
صفات الكمال والجلال والجمال .

(١) الحمد لله هو الثناء على الله بصفات كماله الذاتية المطلقة ، على وفق المحامد التي يحمد  
الله بها ذاته وصفاته على ما يعلم من كمالاته .

فالتَّسْبِيحُ : تنزيهُ الله عن كلِّ نقصٍ . والحمدُ : الثناء على الله بكلِّ صفات الكمال . بأن تقول : (سبحانَ الله والحمدُ لله) . أو (سبحانَ الله وبحمده ، سبحانَ الله العظيم) .

وبالتَّسْبِيحِ بحمدِ الله ختمَ الإمام البخاري كتابه (الجامع الصحيح) بهذا الحديث : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »<sup>(١)</sup> .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ، نَزَّهَهُ عَنِ كُلِّ نَقْصٍ ، وَأَنْسَبَ إِلَيْهِ كُلَّ كَمَالٍ ، وَاحْمَدَهُ عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ .

اللجوء إلى الصلاة :

﴿ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾

أي : قم إلى الصَّلَاةِ ، لأنَّ السُّجُودَ هو أبرز ما في الصَّلَاةِ ، وكما جاء في الحديث : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثرُوا الدعاء »<sup>(٢)</sup> . أن تُعَفِّرَ جبهتك بالسُّجُودِ لله على الأرض ، ﴿ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ، أي : أقم الصَّلَاةَ ، صلِّ لله ، والصَّلَاةُ أبرز ما فيها الرُّكُوعَ والسُّجُودَ ، والسُّجُودُ أفضل ما في الصَّلَاةِ<sup>(٣)</sup> .

(١) متفق عليه ، رواه البخاري في التوحيد (٧٥٦٣) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٤) ، كما رواه أحمد (٧١٦٧) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٦٧) ، وابن ماجه في الأدب (٣٨٠٦) ، عن أبي هريرة .

(٢) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٢) ، وأحمد (٩٤٦١) ، وأبو داود (٨٧٥) ، والنسائي (١١٣٧) ، كلاهما في الصلاة عن أبي هريرة .

(٣) فالإكثار من التسبيح والتحميد مع خشوع القلب له تأثيرٌ كبيرٌ في شرح الصدر ، وتنفيس الهم ، وتخفيف الحزن ، كما أنه يمدُّ الإنسان بقوة وعزيمة تكون عونًا له - بإذن الله - على مواجهة المصاعب والنوائب . وكذلك الإكثار من الصلاة وإطالة السُّجُودِ يؤدي بفضل الله إلى انشراح الصدر ، وإزاحة الضيق والهم ، كما قال عزوجل : ﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (البقرة: ٤٥) .

وكثيراً ما يعبر القرآن عن الصلاة بالركوع والسجود ، أو بالركوع فقط ، أو بالسجود فقط ، وكان النبي إذا حزبه أمر - اشتدت به أزمة من الأزمات - فزَع إلى الصلاة<sup>(١)</sup> . كما أمرنا ربنا تعالى بقوله : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ (البقرة: ١٥٣) .

فالصلاة مَدَدٌ في معركة الحياة ، مدد عندما تَلُمُّ بك الخطوب ، وتُحيط بك الكروب ، فالجأ إلى الصلاة .

فالإنسان في وقت الشدة يلجأ إلى الله حتى لا يأخذ اليأس منه مأخذه ، ويقرب من القنوط ، ويبعد من رحمة الله : ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ (الحجر: ٥٦) ، ﴿ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (يوسف: ٨٧) .

الاستمرار على العبادة حتى الموت :

﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾<sup>(٢)</sup>

استمر في عبادة الله عز وجل ، فإن الله ما خلقك إلا لعبادته : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (الذاريات: ٥٦-٥٨) .

اعبد ربك في جميع أوقاتك ، استمر في هذه العبادة ، اعبد ربك الذي خلقك ، والذي أرسلك ، والذي أنزل عليك الكتاب ، والذي أيدك بملائكته ، والذي يركبك في كل أحوالك ، فهو أحق من تعبده .

(١) إشارة إلى الحديث الذي رواه أحمد (٢٣٢٩٩) وقال منخرجه : إسناده ضعيف ، وأبو داود في الصلاة (١٣١٩) ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣) ، عن حذيفة ابن اليمان .

(٢) هذه الوصية للرسول ﷺ هي : الوصية العاشرة والأخيرة في هذا المقطع من السورة . بدءاً من الوصية الأولى : ﴿ فَأَصْفَحْ أَصْفَحْ أَجْمِيلٌ ﴾ .

كم تعبه؟ سنتين أم ثلاثة أم عشرة؟ ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ .

واليقين هنا : هو الموت ، كما حكى القرآن عن المجرمين المكذِّبين ، حين يَصْلَوْنَ سَقْرَ ، وَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ، ويسألهم أصحاب اليمين : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَيْنَا الْيَقِينُ ﴾ (المدرثر: ٤٢-٤٧) ، أي : حتى أتانا الموت . فكلمة اليقين هنا تعني : الموت .

ويؤيد هذا ما أخرجه البخاري في صحيحه ، من حديث الزهري ، عن خارِجة ابن زيد بن ثابت ، عن أمِّ العلاء (امرأة من الأنصار) : أن رسولَ الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، فقالت أمُّ العلاء : رحمة الله عليك أبا السائب! فشهادتي عليك لقد أكرمك الله :

فقال النبي ﷺ : « وما يدريك أن الله أكرمه؟ » .

فقلت : بأبي أنت يا رسول الله ، فمن يكرمه الله !؟

فقال رسول الله ﷺ : « أما هو فقد جاءه اليقين ، وإنِّي لأرجو له الخير ... »<sup>(١)</sup> .  
فاليقين هنا : هو الموت ، والموت لا شك فيه ، كلُّ مخلوق سيموت ، إن لم يكن اليوم فغداً ، أو بعد غد ، أو بعد عشر سنين ، أو أكثر ستموت .

فاستمرَّ عبداً لربِّك ما دام فيك عرقٌ يَنْبُضُ ، وما دام فيك نَفْسٌ يتردد ، اعبد الله إلى آخر لحظة . ولذلك أمر النبي ﷺ بالاستمرار في الصلاة ما دام عقل الإنسان واعياً ، وما دام يفهم الخطاب ، قال لعمران بن حصين : « صلِّ قائماً ، فإن لم تستطع فقاعدًا ، فإن لم تستطع فعلى جنبٍ »<sup>(٢)</sup> . حتى بالإشارة بالإيماء ، لا تترك الصلاة ، فما دمت تعقل الخطاب ، عليك بالصلاة .

(١) رواه البخاري في الجنايز (١٢٤٣) ، وأحمد (٢٧٤٥٧) ، عن أم العلاء .

(٢) رواه البخاري في أبواب تقصير الصلاة (١٠٦٦) ، وأبو داود في الصلاة (٩٥٢) ، والترمذي

في أبواب الصلاة (٣٧٢) ، عن عمران بن حصين .

متى تسقط عنك الصلاة ؟ إذا سقط عنك الفهم ، ولم تعرف ما حولك . أما ما دمت تعقل ، فأنت مكلف : ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (١) .

### التكليف لا يسقط عن المكلفين :

هناك أناس من منحرفي الصوفية يقولون : إنَّ الإنسان عليه أن يعبد الله حتى يصل إلى المعرفة ، فإذا صار عارفاً بالله ، وَوَصَلَ إِلَى الْيَقِينِ بِاللَّهِ ، ودرجة الكشف والشهود ، سقط عنه التكليف ، وسقطت عنه العبادة ، اعبد ربك حتى يأتيك اليقين ، وقد أتاني اليقين ، فلماذا أصلي؟ لماذا أصوم؟ لماذا أسبح؟ جاءني اليقين . هذا افتراءً على الله ، وافتراءً على دين الله ، وضلالٌ في الفهم ، وهو مردود بالكتاب وبالسنة وبعمل الصحابة ، وبمقتضى التكليف الإلهي ، فالإنسان مكلف طوال حياته منذ بلغ حتى يلقي الله عزَّ وجلَّ .

أَعْرَفُ النَّاسُ بِاللَّهِ : هم أنبياء الله ورسله ، وهؤلاء ظلُّوا يعبدون ربَّهم حتى الموت ، كلُّ أنبياء الله ورسله ، وعلى رأسهم خاتمهم مُحَمَّدٌ ﷺ ، الذي ظلَّ يعبدُ ربَّه إلى أن أتاه اليقين ، لم يستطع أن يؤمَّ النَّاسَ فَرَشَحَ أبا بكر ، وأمره أن يُصَلِّيَ

---

(١) والخطاب وإن كان للنبي ﷺ فهو عامٌ وشامل ، وغيره ﷺ أولى به ، لأنه ﷺ معصومٌ عن الغفلة ، فلا تكون منه فترة عن العبادة ، وانقطاع عن الطاعة أبداً . ولما سُئِلَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن عمل رسول الله ﷺ؟ قالت : « كان عمله ديمة - مستمراً - وأيكم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق؟ » متفق عليه : رواه البخاري في الصوم (١٩٨٧) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨٣) .

وقال ﷺ : « إنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دُوومَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّ » متفق عليه : رواه البخاري في الصوم (١٩٧٠) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨٢) ، عن عائشة .

ولا تقتصر العبادة في الإسلام على الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وإنما تمتد إلى كل شؤون الحياة ، وهذه هي عبادة النبي ﷺ التي بنى بها أفضل المجتمعات وأخرج خير الأمم ، وأنتج أعظم الحضارات الإنسانية وأقواها وأزكاها وأزهاها .

بِالنَّاسِ ، وَيُصَلِّي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَاءَهُ<sup>(١)</sup> . وهكذا ظلَّ عابداً ربَّه ، موصولاً به حتى أتاه الموت ، الذي لا شكَّ في وقوعه لكلِّ حيٍّ ، حتى صار كأنَّه اليقين نفسه .  
وبهذا تنتهي سورة الحِجْرِ المكية ، والحمدُ لله الذي بنعمته تتمَّ الصَّالِحَاتِ ،  
وتتحقَّق الأُمْنِيَاتِ ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم  
تسليماً كثيراً .

---

(١) إشارة إلى حديث : « صلى رسول الله ﷺ خلف أبي بكر في مرضه الذي مات فيه قاعداً » ، رواه الترمذي في الصلاة (٣٦٢) وقال : حسن صحيح غريب ، وصححه الألباني ، قال الزيلعي في نصب الراية (٤٨/٢) بعد أن ذكر أحاديث الصلاة خلف أبي بكر ، وأحاديث عدم الصلاة قال : إن هذه الأخبار كلها صحيحة ، ليس فيها تعارض ، فإن النبي ﷺ صلى في مرضه الذي مات فيه صلاتين في المسجد : في إحداهما : كان إماماً ، وفي الأخرى كان مأموماً ، قال : والدليل على ذلك أن في خبر عبید الله بن عبد الله عن عائشة أنه عليه السلام خرج بين رجلين : العباس . وعلي ، وفي خبر مسروق عنهما : أنه عليه السلام خرج بين : بريرة وثوية .